آراء عامة

فى الشـــــعر والشـــــعراء

لمناسبة وفاة المرحومين « حافظ » و « شوقى »

١ ـ هل أُمرت موت الشاعرين فراغاً ؟

٢ ـ ما مرى مستقبل الشعر والشعراء ؟

خلف موت الشاعرين العظيمين ـ حافظ وشوقى ـ ما خلف من حزن وأسى ، وترك ما ترك من حسرة وألم ؛ وأحدث ما أحدث من هوة وثغرة ، الزمن وحده كفيل ببيان نصيبهما من الحق والباطل ؛ وما أراه أنا وأنت ، ويتفق فيه زيد وعمرو ، قد لا يراه الزمن ، أو يتفق فيه حكمه ؛ فلندع ذلك إليه . وكل ما علينا الآن عمله ، إنما هو التوجه إلى البحث عن الشاعر المصرى المنتظر ، نأخذ بيده ، ونتيح له فرصة البعث والظهور ، فلا نوصد الباب أمامه ، أو نقف ـ بتعصبنا للنثر مثلا ، أو للشعر الاغريقى مثلا ، أو للشعر الغربى مثلا آخر ، أو بحكم علاقاتنا بالفقيدين مثلا رابعاً ـ سداً منيعاً دون ظهور هذا المنتظر .

وليفهم من لا يفهم ، أنا نلحظ فيما ندعو إليه ـ من أخذ بيد شعرائنا المعروفين ، أو المغمورين ـ غرضاً قومياً نبيلا ، فأما أن نتهاون فيه ـ منذ الآن ـ ونحط من أقدار بعضنا بعضاً ، فتلك سياسة الهدم والتدمير ؛ وما كان لمثل تلك السياسة الغلب أو الفوز فى عصور الاستقرار ، وفى بناء مجد الأوطان وسؤددها .

وإن « المعرفة » لترجو ، لو تتاح لها فى القريب العاجل ، فرصة استفتاء شباب الأمة ، فيمن يخلف الشاعرين ، ويحفظ لنا الزعامتين : زعامة الشعر ، وزعامة القومية ، وأعنى بها زعامة مصر على الشرق ، فى دولة الشعر .

والشباب وحدهم هم خير من نتوجه إليهم فى هذا ؛ فما تزال قلوبهم طاهرة نقية ، لم تدنسها منافسة ، أو يعد عليها عدوان من التحيز أو الغرض .

أقول هذا بعد الذى رأيت من إجماع من قابلت ـ من الشعراء والكتاب والأدباء ، على

اختلاف نحلهم ، وتعدد مذاهبهم — على الاحجام عن إعلان رأيهم صريحاً فيمن يخلف الشاعرين .

وها نحن أولاء نقدم — فى هذا الجزء — آراء بعض حضراتهم ، على أن نقدم الآراء الأخرى فى الجزء القادم إن شاء الله ؛ ومن ثم يكون المجال واسعاً أمام الشباب للتفكير فى الأمر ، فى روية وحكمة وتريث .

رد الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لست أعرف مثيلا « للمازنى » الكاتب ، و« المازنى » الأديب ، و « المازنى» الشاعر ، غير (برنارد شو) فى نقده اللاذع ، وأسلوبه التهكمى ، وسموه على استرضاء الجماهير .

وقد أصبح بأسلوبه هذا علماً على مدرسة النقد الحديث،التى تتأثر أسلوبه،وتنهج نهجه .

وليس أدل على ما ذكرنا عن أسلوبه ذاك،من هذا الرأى الذى كتبه — فى الفترة التى زرته فيها — وهو جالس إلى مكتبه،يستقبل زائراً ليودع زائراً آخر، وينتهى من التحدث إلى بعض المحررين ، ليعد مواد التحرير لعامل المطبعة الذى لا يرحمه ، والذى يأبى إلا أن يستأثر بجميع وقته .

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

أرجو أن تسمح لى ، أن أوجز فى جوابى عن سؤاليك اللذين تفضلت بتوجيههما إلى ؛ والايجاز خير من الاطالة ،تفادياً من إ[illegible] ، فى مسائل لم يبق قلم إلا تناولها بالكلام .

أما السؤال الأول،فجوابى عنه: أن المرحومين « حافظاً وشوقى» يمثلان مذهباً أو مدرسة كان البارودى فاتحتها ، وكانا هما ختامها ، وبموتهما انتهت هذه المدرسة ، ولم يبق منها شىء يستحق الذكر ، وقد تقضى العصر الذى أنتجهما قبل أن ينتقلا هما من هذه الدار ، فلا يمكن فى رأيى أن يقال : إن مكانهما الآن خال ، أو إنهما أحدثا فراغاً فى عالم الأدب الحديث ؛ والسبب بسيط جداً ؛وهو أنه لم يكن لهما مكان فى هذا العصر حتى يقال إن مكانهما قد خلا، وإنما كان مكانهما فى العصر الذى خلا ، والذى جاء العصر الحاضر على آثاره ، وكانا هما متخلفين من ذلك العصر ، أو امتداداً منه ، كما يمتد لسان من الأرض فى ماء البحر ؛ ونحن الآن لنا : آلام ، وآمال ، ومثل ، غير التى كانت لعصرهما ؛ وفهم عصرنا للشعر وغاياته ووسائله ، يختلف عما كان يفهم زمانهما فى ذلك .

مستقبل الشعر

نسيت سؤالا ثانياً هو مستقبل الشعر، وأنا على خلاف رأى الذى يقول : إن تقدم المدنية يقضى عليه ، وأعتقد أن الامر على النقيض ، فكلما اتسعت آفاق العقل والنفس ، كان مجال الشعر أوسع ، والشعر ليس جنلا ، ولا هو وليد الجهل، حتى ينمو فى ظلام التأخر والانحطاط، ثم يجىء نور المدنية فيمسحه ويمحى عليه؛ ومع التقدم تتفتح العقول والنفوس، وتصبح أفطن وأدق إحساساً ، وأسد نظراً ، وأعمق غوصاً ، وأهدى طريقاً ؛ والشعر ليس ترفاً لأنه متصل بأصول الحياة ، ومستمد من مادتها الخالدة .

وحسبى الآن هذا القدر ، وعسى أن يقنع الأستاذ الزميل صاحب « المعرفة » ومحررها بهذا الايجاز .

ابراهيم عبد القادر المازنى

رأى الاستاذ محمد الهراوى

خلق نبيل ، ونفس رضية ، وإيمان بالمستقبل ، واطمئنان إلى الحق ، وشاعرية متوثبة . . . تلك هى أبرز ميزات الأستاذ « الهراوى » ، وأظهر صفاته ، وأجلى ظاهرة فيه .

وقد أعرف له من المواقف المشرفة فى حياة المرحومين حافظ وشوقى ما لو عرفه الناس، لأكبروه إكباراً فوق إكبار ، وبادلوه حباً فوق حب .

ولست أعرف إن كان يوضع فى صف الآخذين بالجديد أم الآخذين بالقديم ؛ وإنما أترك هذا لك تتبينه من رأيه الذى سجلناه فى السطور التالية :

هل أمرت موت الشاعر بهم فراغاً ؟

أقول لك فى صراحة وصدق وإخلاص ـ وأنت من أعرف الناس دفاعاً عن العقيدة، وصلابة فى الحق، وتمسكاً بالجوهر ـ : إن الشاعرين ـ على ما خلفه موتهما فى نفوسنا من حسرة وألم وحرقة ، تحز فى نفوسنا حزاً ـ لم يتركا هذا الفراغ المزعوم، فمعاصروهما من الشعراء الجديين لا يسمحون بترك هذا الفراغ ، بما لهم من شعر حسن جيد ، لا يقل روعة وجلالا عن شعر الفقيدين العظيمين؛ بل هو ـ على العكس ـ قد فتح طريقاً كانت مسدودة من قبل، ومهد سبيلا كانت موصدة من زمن ، وذلك راجع إلى ما أحاط بهما من الشهرة بفضل البيئة والوسط ، وبفضل علاقتهما بالشخصيات البارزة فى مصر والشرق .

ولست أشك فى أنك تعرف أثر هذه العلاقة ، وأثر الأسماء الضخمة فى تعميم الشهرة

فى نفوس عامة الناس ، وإذاً تستطيع أن تعرف من هذا أنهما أحدثا فراغاً فى الشهرة ، وليس فى الشعر كما يتصور بعض الناس . وهذه الشهرة هى فن آخر غير فن الشعر .

وقد آن الوقت الذى يجب أن تتضامن فيه ـ معاشر الشعراء والأدباء ـ على محو هذه المؤثرات من أذهان الجماهير، وإبعاد التأثير الخارجى عن الشعر والشعراء، ليستطيع الشعر تأدية رسالته، ويقدر الشعراء أنفسهم فيما يأخذونها به من تجويد وتصوير ، وإنى لأعتقد أن فى تضامن شعراء العصر ـ بدون منافسة شخصية كما كانت الحال قديماً ـ على إنهاض الشعر وتجديد نواحيه ، ما يفتح لهم الباب على مصراعيه ، ليسلك كل منهم سبيله إليه .

وكل ما هو مطلوب من الأمة أن تقدر جهود المجيدين من شعرائها فى الحال والمستقبل ؛ فالشاعرية تضعف وتقوى تبعاً لضعف الأمة أو قوتها : من جانبها إلى نفسها أولا، ومن جانبها إلى شعرائها ثانياً .

فالتضامن من ناحية الأمة فى التقدير والاشادة، ومن ناحية الشعراء فى التجديد والاجادة ، هو موضع الأمل فى المستقبل ، باذن الله تعالى .

مستقبل الشعر

تسألنى يا صديقى عن مستقبل الشعر، وأنا أحس منك انتظار إجابتى بأن المستقبل فى ضمير الغيب ؛ لكنى أرجو أن تسمع إلى ما أدلى به إليك :

إننى أعتقد اعتقاداً جازماً ، لا ريبة فيه ، أن مستقبل الشعر سيكون خيراً من حاضره ، كما أن حاضره خير من ماضيه ؛ وإن فى هذه الحشود المتدفقة ، وفى هاتيك الجماهير المتلهفة على الشعر ، المتعطشة إلى تذوقه ، الراغبة فى استماعه ، المتتبعة آثاره ، لدليلا ـ وأى دليل ـ على أن الشعر سيحتل من النفوس منزلة أرفع، وستتاح له فرص من الحياة الهنيئة الطيبة، الملأى بمختلف الآمال ، مما لم يكن له من قبل .

وأقول لك أيضاً: إن الشعر قد استطاع فى الوقت الحاضر أن يجذب إليه قلوباً كانت عنه نافرة ، وأن يقود إليه نفوساً كانت عنه جامحة ، وهذه باكورة مباركة ، قد بدأت تؤتى ثمارها الناضجة المنتظرة فى ضمير الغيب ، فى الوقت المناسب؛ وأعتقد أن تلك البوادر الموفقة برهان ساطع يبرر لى التفاؤل الحسن لمستقبل الشعر، كما أعتقد أن تلك العوامل ـ مجتمعة إلى بعضها البعض ـ ستحفز فوجاً من الشعراء المغمورين، وحشداً من الأدباء المطمورين ، وستدفع هؤلاء وهؤلاء جميعاً إلى الانتاج آناً ، والاجادة آناً آخر ، والتنويع تارة ، والتفنن تارة ؛ وبحكم سنن الكون وكائناته ، بل بحكم قانون الحياة ، سيأخذ الشعراء المجيدون عدتهم إلى تحقيق رسالتهم ، وتأدية أمانتهم بالتجويد ، والتحقيق ، والتدقيق ، والافتنان، والابداع فى

تصوير العواطف الانسانية تصويراً دقيقاً لنواحي حياة العصر والبيئة المختلفة ، وتلك هي في الواقع رسالة الشعر ومهمة الشعراء .

لهذا أعتقد أن شعراء مصر – ومصر هي صاحبة الزعامة الشعرية والأدبية ـ سيبتكرون ألواناً جديدة من الشعر هي نواحي الحياة المستقبلة، بل أزعم لك أن شعراء العصر الحاضر قد ابتكروا فعلا تلك الألوان مما لم يكن له سابق عهد ؛ وفي شعر الأطفال ، وأهازيج الصناع ، وأغاني البيوت، وأناشيد العامة، مثل للألوان المبتكرة من الشعر العربي العف الصحيح ؛ وستكون هذه أساس الابتكارات المقبلة ؛ وهذا هو بنيان دولة الشعر الحديث الذي سيحيي فنوناً نافعة، ويميت أخرى أصبحت غير صالحة ؛ وسيكون قوي الخيال، عربي الأسلوب، متى أبعد الله عنه فتنة المدنية الغربية بفضل غيرة أهل اللغة والمجامع المستقبلة .

وأقول في النهاية : إنه على الرغم من العقبات القائمة في سبيل الشعر والشعراء ، فان الفرصة ستتاح له للتغلب على هذه العقبات إن شاء الله تعالى .

رد الاستاذ انطون بك الجميل

الأستاذ انطون الجميل رجل (جنتلمان) بكل معاني الكلمة ؛ فهو مهذب اللفظ، مهذب العبارة ، مهذب الأسلوب ؛ وقد حببته هذه الظاهرة، تقدير المثقفين من مختلف الطبقات جميعاً ، تقديراً يبلغ الشأو . كما أتاحت له ملكة فنية في النقد الأدبي العالي ؛ وحاسة شعرية يلمسها القارىء مجلوة في مجلته الأدبية التي كان يصدرها منذ عشرة أعوام تقريباً باسم « الزهور » .

تقدمنا إليه بهذين السؤالين ، فاعتذر عن الاجابة عن السؤال الثاني ، مكتفياً بالاجابة عن السؤال الأول إجابة كتبها بقلمه ، هي هذه التي ننشرها بنصها :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

من ينكر أن الأدب العربي قد مني هذه السنة بخسارة فادحة بموت «حافظ» ثم بموت «شوقي» ، خسارة شعرت مصر بها قبل سواها، لأنهما أجلساها الصدر في دولة الأدب، وشعرت بها مع مصر سائر الأقطار العربية ، لأنهما كانا من مفاخر لسان العرب ؟

أما التنبؤ عن سيخلف كلا منهما في المكان الذي تبوآه في مملكة القريض والبيان، فليس بالسهل ولا بالمستطاع . فشاعر مصر ، بل شاعر العربية : مكنون في ضمير الغيب ، قد تبرزه الحوادث في غدنا القريب .

ولا يعزبن عن البال أن ما ناله كل منهما من الشهرة ، وبعد الصيت ، قد يكون طمس عبقريات كثيرة ستبرز إلى الميدان بعد أن خلا من فارسيه المعلمين ، كما أن ما أحرزه كلاهما

من المنزلة الرفيعة فى حياته ، ومن التكريم والاشادة بذكره بعد مماته ، سيشحذ القرائح والأذهان للمباراة فى حلبة الشعر .

وليس من الحكمة والمنطق فى شىء ، أن تندب الشعر والأدب بعد فقد ذينك الشاعرين؛ فالوادي الذى أنجب البارودى ، وصبرى ، وحافظاً ، وشوقى ــ ولا أذكر إلا الأموات الذين عاصرناهم ــ سينجب غيرهم من عباقرة الشعر وأعلام الأدب ؛ فشعل الشعر لايطفأ نوره أبداً، ولا ينضب زيته ، بل ينتقل دائماً من يد إلى يد ، تغذيه القلوب النابضة ، والنفوس الحساسة .

وخير ما يقال ــ فى هذا المقام ــ هذه الأبيات لشوقى نفسه :

قديم الشعاع كشمس النهــا ر ، جديد كمصباحها الملهب
أبوقراط مثل ابن سينا الرئيـ س ، وهومير مثل أبى الطيب
وكلهمو حجــر فى البنــــا ء ، وغرس من المثمر المعقب

أنطون الجميل

رأى الدكتور هيكل بك

اما أن « هيكل » فى طليعة كتابنا المصريين ، فسألة مفروغ من بحثها على ما أعتقد ، وإنما أزعم أن جمهرة القراء لم يعرفوا ــ كما لم يعرف « هيكل » نفسه ــ أنه شاعر، وشاعر مجيد، وشاعر إلى حد بعيد؛ لأنهم لم يقرأوا له قصيدة متناومة موزونة مقفاة؛ ولأنه ينكر على نفسه الشعر ، وقول الشعر؛ لكنى أرجو أن تتعرف إلى أسلوب الشاعر لتعرف إن كان « هيكل » شاعراً ، أم غير شاعر ؛ أما أنا فأزعم أن أسلوب الشاعر ، هو ذلك الأسلوب الذى يعبر عن مختلف الأحاسيس الانسانية ، وخلجات النفس البشرية ، وما يعترك فى نفوسنا من آلام ، وآمال ، ورغبات ، وأحلام، وحق وجمال، فى أصدق تصوير ، وأدق تعبير. وأنا أعتقد أن هذا كله قد أتيح « لهيكل » الأديب ، أو « هيكل » الشـاعر إن شئت الدقة فى التعبير ، هو إذاً شاعر ناثر ، أو هو ناثر شاعر ، وله بعد ذلك أن يرضى بهذا ، أو لا يرضى به .

ذهبت إليه وليس لديه متسع من الوقت؛ فاكتفيت بالتحدث معه عن مستقبل الشعر ، هذا الحديث الذى نقدم إليك خلاصته فيما يلى :

مستقبل الشعر

قبل أن أجيب عن سؤالك هذا ، يجب أن نعرف أولا ما هو الأدب فى حقيقته ، وما هى رسالة الشعر وماهيته ، حتى إذا ما عرفنا المقدمات ورتبناها ترتيباً صحيحاً ، استطعنا أن نستنتج استنتاجاً صحيحاً ، بل أكثر من هذا ، أرى أنه فى تحديد معنى الأدب بصفة عامة ،

ومعنى الشعر بصفة خاصة ، ما ينتهي بنا إلى فهم الرسالة الفنية على وجه ، إذا لم يكن بالفاحد الكمال ، فلا أقل من أن يكون أقرب إلى ذلك الكمال المنشود .

عندى أن الأدب في عمومه ، والشعر بنوع خاص ، رسالة يقصد بها إلى بعث حب الجمال والقوة ، بل حب الحياة في مراحلها المتعددة ، بل حب الوجود في وحداته المختلفة ، وحب الحق في أية صورة من الصور ، والجمال في أى مظهر من المظاهر .

وما أحسب تأدية هذه الرسالة على وجهها الصحيح يتأتى لأديب أو شاعر — بالغاً ما بلغ كلاهما من الشهرة والدعاية — ما لم تكن صادقة الأداء، صحيحة التوجيه ، بل ما لم تكن الروح الفنية التي تتجه إلى المثل الأعلى ، خالصة من الأدران ، مبرأة من الشهوات ، منزهة عن الأحقاد الشخصية ؛ وهذا الشاعر الذى لا تتأتى له وسائل عرفان ما في الحياة من حق وجمال، قمين به أن يترك رداء الشعر ، قبل أن يرشح نفسه له، أو يذهب في الدعاية لنفسه بين قومه به، فيلبس مسوح الوعاظ زوراً وبهتاناً .

ولكى نتلمس مثلنا الأعلى في شعر الشاعر ، يجب أن نتلمس أولا مبلغ ما في شعره من تصوير للآمال التي تتصل بنفوسنا، أو وصف للآلام التي تستشعرها قلوبنا، أو تحديد للرغبات التي تضطرم بها جوانحنا ، بل نتلمس فيه الفكرة وهي من الشعر أساسه ، والأسلوب وهو ثوبه للموسيقى الجميل ، ومثله وهو ثمرته الناضجة ؛ ولكى تكون حديقة الشعر جميلة يانعة ليكشف لنا الشاعر عما في الحياة ، يجب أن ينهل من ورد الفلسفة ومن ورد العلم معاً ، لأنهما في الحقيقة الوسيلتان الفعالتان اللتان بهما ندرك كنه الحياة ، ونتعرف إلى ما في مذاهبها المتعددة ، وألوانها المختلفة ، من حب وفن وجمال، لذلك كان الشاعر الأكثر نهلا من هذين الوردين، أقرب إلى المثال الذى نطلبه، وأقدر على تأدية الرسالة التي تحملها إياه طبيعته .

الشاعر والعلم والفلسفة

وهنا قلنا للدكتور: قد يعترض على هذا معترض فيقول : إنه ليس شرطاً في الشاعر أن يكون متمكناً من العلم والفلسفة ، لأن الشعر عاطفة ووحى وإلهام ، وكل ما هو عاطفة ووحى وإلهام، إنما يعتمد على النفس الحساسة، والشاعرية المدركة ، والذوق السليم، والفطرة المطبوعة ، لا على العلم أو الفلسفة؛ ولهذا يقال فلان شاعر بالطبيعة، وفلان شاعر بالصنعة، وما سمعنا أن الزمن أبقى على ذكر شاعر من شعراء الصنعة إبقاءه على شعراء السليقة أجمعين ، فما قولك في هذا ؟

فقال: إنك تعود بى إلى خلاف حدث في نفس هذا الموضوع، أو ما يقرب منه تماماً، وقد حدث ذلك بيني وبين صديقي «خليل مطران» في أوائل سنة ١٩٢٨ ؛ وكان مثار التساؤل عما إذا كان الأدب العربي قديمه وحديثه يكفي لتكوين الأديب؛ وقد كان موقفي — كما تعرف — موقف المقتنع بأن لابد للأديب من دراسة اللغات الأجنبية، والإحاطة بمراحل العلم والفلسفة؛ ليتسع تصوره للمثل الأعلى، وينمو خياله

ويتجدد فهمه للحياة ، ويترامى أفقه ؛ ولهذا كان العرب قديماً يقولون: إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ؛ وكانوا لهذا يضيفون إلى علوم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والفصاحة ، علوماً كثيرة من سير العرب وأخبارهم وتاريخهم ومواقع بلادهم ؛ ومع اقتناعي بهذا الذي ذكرت في اعتراضك ، فإني أقول لك : إن مثل الأديب المطبوع الذي لم يثقف بالعلم والفلسفة، ولم يتعرف إلى أدب الافرنج أو اليونان مثلا ، مثل الشجرة المثمرة التي لا تنتج ثماراً طيباً، ما لم يرعها صاحبها تهذيباً وتشذيباً، ويتعهدها رياً وسقياً، ثم هي تؤول - آخر الأمر - إلى الذبول ثم إلى تسليم أنفاسها إلى الموت، فلا يبقى فيها - إن قدر لها البقاء - إلا ألياف من الجذع ، لا تنفع إلا للوقود؛ كذلك أرى أن مثل أديب الصنعة، مثل الأرض الجدباء، لا تثمر ثمراً ناضجاً - لو قدر لها الإثمار - مهما أنفقت في سبيلها من جهد ومال .

ونحن بالطبع لا نريد هذا الصنف الأخير ، سواء أكان من الأدباء أم الشعراء ، وإنما نريد النوع الأول - أعني المطبوع - على أن يكون في الوقت ذاته مستكملا أدوات الصنعة من علم وفلسفة ودراية بالآثار الفكرية في الشرق والغرب، أي يكون قارئاً لشعراء الانجليز أو الألمان أو الفرنسيس أو الايطاليين أو اليونانيين مثلا ، حتى يستطيع أن يحقق لنا المثال الذي تنشده نفوسنا جميعاً .

لقد تطورت الانسانية في جميع مراحلها تطوراً هو أقرب إلى الطفرة منه إلى التريث ؛ وهذه المشكلات السياسية ، وهذه الآراء الفلسفية ، وهذه المكتشفات الحديثة ، وهذه المذاهب العلمية المتجددة ، التي قلبت الكون وكادت تغير معالمه ؛ ولونته بألوان مختلفة من البناء والهدم آناً ، والترميم والتدمير آناً آخر ، والاصلاح والتخريب آونة ؛ كل هذه داعية من يتصدى لحمل الرسالة الأدبية إلى تعرف هذا الكون في مختلف مراحله؛ فهذا العصر الذي تغيرت فيه الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء ؛ لا ينفع في وصفه ذكر الأطلال، أو البكاء على الديار ، أو نشدان القافلة ، أو تطلب المرعى ، أو السعي وراء الهودج ؛ أو البحث عن عين الماء ، أو ما شابه ذلك من أساليب الحياة البدوية ، التي أكل عليها الدهر وشرب .

الوحدة الموضوعية

ولماذا لا أزيد القول صراحة فأقول لك : إن أدبنا العربي في جميع مراحله كان أدب حوادث ، لا أكثر ولا أقل ؟

وأنت إذ تحاول نفس الفكرة فيه أو الوحدة الموضوعية إنما تحاول عبثاً ، ذلك أن نفس الشعر العربي بالغ القصر ، وهو على قصره قصير الفكرة ، بينا نراه - على قصره هذا - : طويل الغزل والتشبيب ، كثير المدح للأمراء والتحدث بمفاخرهم ؛ أما الفكرة الأساسية فيأتي ترتيبها في النهاية ، فاذا هي لا تستقر في النفوس استقرارها المنطقي المعقول ؛ وإنما تذهب

من النفس إثر تلاوتها أو سماعها في الفضاء الواسع، ذلك أن الأصل في القصيدة لم يكن الفكرة، وإنما كان مجرد النظم والرغبة في استرضاء الممدوح لا أكثر ولا أقل.

وهم على إكثارهم من التغزل، والتشبيب، والمدح، والفخر، والهجاء، إلى غير ذلك من فنون شعرهم، لم يكونوا ليستطيعوا للوصف إطالة ولا جودة، ولست أعذرهم في هذا أو آخذ بالرأي الذي يقول: إن حياتهم كانت متشابهة، لأنها حياة بدوية فطرية لا تتعدى الصحراء أو البادية، وإن صلتهم بالمدنيتين: الرومانية، والفارسية كانت في حكم النادر.

أقول إنني لا آخذ بهذا الرأي مطلقاً، ولا يحل من نفسي محل الاقتناع، لأن هذا الرأي - على فرض التسليم بصحته جدلا - لم يكن ليضع في أقدام الشعراء قيوداً تمنعها السير، أو يطوق أعناقهم بأغلال تمنعها الحركة.

وها نحن أولاء نقرأ في تاريخ الدولة العباسية وشعرائها عجباً، فنراهم - وقد امتد سلطان المسلمين، واستطالت دولتهم، وعلت كلمتهم، واتسعت أطماعهم - تطوروا من الاقليمية إلى الجامعية، ومن القومية إلى العالمية؛ بل أخذوا يكشفون عن أغراض نبيلة، وأطماع أوسع، وأخذوا يجددون في الألفاظ، ويحيون ما اندرس منها، ويضيفون إليها بالبحث والاشتقاق ما استحدث في عصورهم واستجد في عهودهم، ويسجلون ما وصل إليهم من أخبار الأمم القديمة وسير الأمم المجاورة.

أما الآن وقد أصبحنا نفكر بعقول غربية، ونستهدي في تفكيرنا بمخلفات أجدادنا من دين ولغة وتاريخ وأدب أيضاً، فإن الأمر يبدو شاذاً كل الشذوذ حين نوقر آذاننا بسماع هؤلاء الشعراء الذين ما زالوا يحدثوننا عن ليلى وسلمى ورباب، باكين الأطلال والديار، ذاكرين بعد المزار، حانين إلى عهد الجمل والهودج، والشرعة والعرمض، وضارج وحومل.

أجل! إنه ليبدو شاذاً تمام الشذوذ، بل اتهاماً لأذواقنا وعقلياتنا، حين نقرر أن هؤلاء شعراء. ولهذا لست أعرف - على التحديد - إن كان مستقبل الشعر سيكون خيراً أم أسوء من حاضره وماضيه؛ فقد أكون أكثر إيماناً بأن المستقبل للنثر دون الشعر، كما يدل على ذلك حاضرنا وماضينا القريب.

على أنه يوم يتاح لشعرائنا - ونسميهم شعراء تسامحاً - أن يجددوا في فنون الشعر، ويطرقوا أبواباً جديدة تشبه تلك الألوان التي نحسها في (شلي) و (بيرون) مثلا، بل يوم يطول تفسهم في الوصف والتحليل، والتعمق والاستقراء، والغوص وراء المعاني العالية، والقصص والملاحم، كما كان يفعل شعراء اليونان... ويوم تتلمس في شعرهم الوحدة الفنية الموضوعية، وسمو الخيال واتساعه، وتصوير المثل الأعلى تصويراً دقيقاً.....

يومئذ، ويومئذ فقط، تنادى بأن المستقبل للشعر.

رأى الاستاذ على الجارم

لو أردت أن أصور لك تلك الجوانب الصافية، التي تتميز بها شخصية العالم الأديب، والأديب العالم ، والشاعر الفحل الأستاذ « الجارم » ، لطال بى القول ، وحسبى أن أقول لك إنه عالم فذ فى فنون اللغة والبلاغة والأدب ، وبحاثة بعيد الغور فى تاريخ اللغة وما يتصل بها من : نحو ، وصرف ، وبيان ؛ وهو حين يزجى إليك رأياً من آرائه ، إنما يحرص على أن يدفع إليك الرأى الرصين ، والفكرة السديدة ، والعقل الراجح ، والمنطق المتزن ، والقول القارء ، والكلام السهل الممتنع ؛ ثم هو يحرص — إلى ذلك — على أن يكون رأيه مشفوعاً بالحجة والبرهان ، مقترناً بالمنطق والدليل . وقد يكون كل ما يؤخذ عليه أنه — وهو الشاعر الفحل ، الرائع اللفظ ، السرى المعنى ، البعيد الخيال — مقل فى قول الشعر ، فلا يقوله إلا فى أدق ساعاته ، لا عن عجز ، وإنما سمواً به عن الابتذال ، وترفعاً عن المهاترة .

فاجأته فى منزله بهذه الأسئلة ، فأدهشنى منه أن يرتجل الاجابة عنها ارتجالا ، كأنما يقرأ من كتاب أمامه ، أو يتلو قصيدة لما يتمها بعد ، أو كأنما كنا على موعد سابق . وهأنذا أقدم إليك ما علق بذهنى من هذا الحديث ، الذى بدأه بقوله :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

إنه لمن العسف كل العسف ، أن ننكر أن ثمة فراغاً هائلا قد حدث إثر موت هذين الشاعرين العظيمين ، اللذين أعادا من جديد سلطان الشعر إلى سابق عهده ، وبسطا ظل زعامته فى الوادى بسطاً ؛ على أن هذا الفراغ لا ينبغى أن يصرفنا بحال من الأحوال ، عن تلمس الشاعر المجهول الذى سيصبح أمير الشعر ؛ وإذا كان هذا الشاعر المنتظر نسميه الآن بالمجهول ونعبر عنه بالحرف (س) كما يعبر الرياضيون ، فان المستقبل كفيل بالكشف عنه والايماء إليه .

وهذا الذى رأيناه من تمجيد الأمة للشعر : حكومة وشعباً ، سيكون باعثاً قوياً على خلق الروح الشعرية الحساسة ، وبعث الشاعر الفنان الذى يؤدى رسالته فى عزم وقوة ، وفى تجديد وتجويد ، وفى روعة وافتنان ؛ بل أستطيع أن أقول لك إن هذه الظاهرة — ظاهرة التقدير الأدبى للشعر والشعراء — ستحفز الشعراء إلى الابداع فى القول ، والافتنان فى الوصف ، والتجويد فى البناء ، والغوص وراء المعانى الرائعة ، وتلمس المثل العالية ، وكشف العواطف الانسانية الدفينة ، وتصوير الخوالج النفسية المصرية تصويراً دقيقاً .

وقد يكون من حقى أن أعتقد اعتقاداً تام اليقين ، أن الثغرة — التى منينا بها الآن بعد

موت الشاعرين ـ أقل اتساعا وأصغر مدى من تلك التي أحدثها موت «البارودي» في عصره ؛ وأنت تعلم ذلك الأثر الهائل الذي أحدثه موت «البارودي» في دولة الأدب وبنيان الشعر ، وقد تعلم أن الناس وقتئذاك ، قد ذهبوا يتلمسون السبل في تعرف الشاعر المنتظر ، بل راحوا يظنون الظنون ويتنبئون ويقدرون ، فتأبى الأقدار إلا أن تفاجئهم بـ « شوقي » ، ليكون إعجازاً لارهاص «البارودي» ، كما كان « البارودي » إعجازاً لارهاص « الساعاتي ».

أما كيف تسنم « شوقي » ذروة هذا المجد ، فيعود إلى ما آتاه الله من المواهب الفطرية ، والأخلاق الرضية ، وبسطة العيش ، والجاه ، واتصال بالأمراء والعظماء ، وسعة الثروة ، والفراغ ، وهدوء البال ؛ فإن كل ذلك كان سبباً ؛ وأي سبب ؛ في قبضه على صولجان الشعر حتى وفاته .

وقد كان « شوقي » مثقفاً بالغ الثقافة ، متذوقاً كل التذوق لما يقرأ ويدرس من أدب العرب ، ودواوين العرب ، ولغة العرب ، وأدب الفرنجة ، ولغة الفرنجة ، أضف إلى ذلك ما كان يحفظه من تواريخ الأمم ، وحوادث العالم في مختلف مراحله ، مما جعل شعره مملوءاً بالأسانيد التاريخية ، والحكم ، وضرب المثل ، والتفنن في الوصف ، والبراعة في التخلص ، وحسن المدخل ، وجميل الوقع .

وقد فاتني أن أقول لك : إن أبرز ميزة كانت في أخلاق « شوقي » ، إنما هي ميزة الاستسلام إلى الخالق تعالى ، والرضا بحكمه ، والاطمئنان إلى قضائه وقدره ، اطمئناناً وفر له هدوء النفس ، وطمأنينة القلب ، وراحة الضمير .

وقد لمست هذا كله في محادثاتي معه ، ومن صداقتي له ؛ فعرفت منه السر في هذا الينبوع الفائض ، الذي أفاضه الله عليه ؛ فإذا قدر لشاعر من شعرائنا المعاصرين هذا الذي ذكرت ، فليس من شك في أنه سيصبح أمير الشعر المنتظر .

مستقبل الشعر والشعراء

وتسألني رأيي في مستقبل الشعر ، إذاً فاسمع :

لا شك أن الشعر سينهض نهوضاً بارزاً ، وقد تأثر الآن بعوامل المدنية ، وأصبح في كثير من نواحيه صورة صادقة للعصر الذي نعيش فيه ، وقد عاد أسلوبه إلى ما كان عليه من روعة في العصر العباسي الزاهر ، وأصبح ـ مرة أخرى ـ فناً له أصوله ومبادؤه ، وهو يقال الآن في مختلف الموضوعات ، ومتعدد الأغاني ؛ والشعراء يتوجهون إليه في غالب أحيانهم كما يتوجه رجل الفن إلى قطعة من الفن ، يبرزها رغبة في إظهار مواهبه ، وتنفيساً عما يجيش في نفسه من صور ، ويختلج في ذهنه من خيال ؛ فهو يقول الشعر ، لأنه يحبه ، ولأنه جزء من نفسه ، ولأن الفطرة تدفعه إلى أن يقوله ؛ ولا شك أن ذلك كفيل بالابداع والاحسان .

هل تأثر الشعر العربي بالثقافة الاجنبية ؟

وتقول لى : إن الشعر العربى قد تأثر — إلى حد بعيد — بالثقافة الأجنبية ، ولست أخالفك فيما تذهب إليه كل المخالفة ، ولكنى أقول :

إن الشعر العربى كان قليل التأثر بالثقافة الاجنبية ، لأن شعراء العربية أرادوا أن يحافظوا على أسلوب الشعر القديم ومناهجه ، ولم يريدوا أن يدخلوا عليه عاصفة من التجديد تذهب بآثاره ، لأنهم رأوا — وما رأوه حق — أن كل فن يجب أن يكون مطبوعاً بطابع الامة ، ملائماً ذوقها العام ، ومثل الشعر فى ذلك مثل الموسيقى ، أرأيت لو أدخل على النغمات الشرقية عنصر من النغمات الغربية ، أكانت تطرب لها أذنك ، أم تهش لها نفسك ؟ . . . فلكل أمة فنها ، ولكل أمة ذوقها ، لذلك حافظ الشعراء — ما استطاعوا — على أوزان الشعر وأساليبه وأخيلته ، ولم يغفلوا التجديد فى المعانى والموضوعات ، وقد اتسع صدر الشعر العربى لهذا التجديد ، ولم تضق به أوزانه ولا قوافيه ، لأن اتساع اللغة وكثرة مفرداتها ومترادفاتها ، أفسح الطريق لكل قائل : كيفما طال نفسه ، وأبعد فى مراميه .

أين الوحدة الموضوعية الفنية ؟

وهنا قلت له : إن أغلب قصائد شعراء العرب والعصر الحاضر خال من الوحدة الموضوعية الفنية ، فما رأيكم فى هذا ؟

فقال : نشأ الشعر فى الجاهلية الأولى مظهراً لخطرات النفس وأحاسيس الفؤاد ، وبخاصة حينما كانوا يرتجلون الشعر ، فكان الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى ، ومن مظهر من مظاهر الوجدان إلى آخر ، لأن أصول الفن الشعرى لم تكن وضعت ، فكان الشعر يقال عفو الخاطر ورسالة البديهة ، وتستطيع أن تمثل لذلك بمعلقة «طرفة» ، فقد تنقل فيها من وصف الأطلال إلى وصف الناقة ، إلى وصف محبوبته ، إلى الشكوى ، إلى وصف ملاهيه ومجونه ... إلى غير ذلك .

واستمر الشعر فى صدر الاسلام ، وفى عهد بنى أمية على هذا السنن ، إلا ما يبرز أحياناً فى قصائد الشاعر من وصف الحياة الجديدة التى ابتعثتها الفتوح الاسلامية ، وإلا ما كان من رشاقة الألفاظ ورقتها ، مما تأثر فيه المسلمون أسلوب القرآن الكريم ، أى أن الأسلوب الشعرى الفنى تهذب كثيراً واتسع مجال القول قليلا بفنون جديدة ، أما هيكل الشعر ومنهجه ومثله ، فقد بقيت حافظة كيانها العربى الصميم ، وربما كان من أسباب هذا قرب ذلك الجيل من عهود العرب الأولى ، وشدة تعصب الأمويين للعرب والعربية ، على أنا نرى فى ذلك العصر طائفة احتفظت بوحدة الموضوع فى قصائدها ، وهم طائفة الشعراء الغزلين ، كعمر بن أبى ربيعة ، وجميل بثينة وغيرهما ، ممن كان يبنى قصيدته على الغزل من أولها إلى آخرها ، بحيث تكون مظهراً لفكرة واحدة .

ولما جاءت الدولة العباسية ـ وقد قامت بمناصرة الفرس وجهادهم ـ كان للفرس والفارسية شأن يذكر ، فانتقلت الحياة العربية الصميمة من البداوة إلى الحضارة ، وامتزج العقل السامى بالعقل الآرى ، ونهض الخلفاء فى صدر الدولة العباسية بمناصرة العلم والأدب ، فترجموا كثيراً من آثار اليونان والرومان ؛ وكان لهذه الآثار مدى بعيد الأفق فى تثقيف العقول العربية ، وإمدادها بألوان جديدة من الأفكار والأخيلة ؛ وظهر هذا الأثر فى الشعر العباسى من غير شك ، وكثرت معانيه ، وجددت أخيلته ، ورقت عبارته ، وكان مظهراً صحيحاً للحياة العباسية ، بمثلها من حيث قوتها ، واتساع سلطانها ؛ وعظم ثروتها ، ومجالات الأنس والسرور فيها.

وقد اتسع نطاق متن اللغة بدخول كثير من الألفاظ الأعجمية بعد أن صقلها العرب بصقالهم ، فامتزجت بلغتهم غير مستوحشة ولا نابية ، وأصبحت ثروة جديدة للغة العربية ؛ وقد كان يكون التجديد أعظم مما شاهدناه ، لولا ميل فطرى فى نفوس الشعراء للتمسك بآثار آبائهم ، والمحافظة على مبانى الشعر وقواعده ، ولولا أن كان هناك طائفة من النقاد على رأسهم : الأصمعى ، وحماد الراوية ، وغيرهما ـ الذين كانوا يتعصبون للشعر العربى القديم ، ويعدون كل خروج عليه خروجاً عن ذوق الشعر ، وتقصيراً عن بلوغ مداه ـ فكانوا لا يفضلون على الشعر الجاهلى شعراً ، وكان لهؤلاء من النفوذ بين كبار رجالات الأدب وزعماء الدولة الشىء الكثير ، فكان الشعراء يتعمدون ترسم آثار السابقين لينالوا الزلفى عند هؤلاء النقاد .

وأول من أطلق فكره من هذه الأغلال ـ على ما أعرف ـ ابن قتيبة الذى وضع كتابه «الشعر والشعراء» لنقد زيف الشعر وصحيحه ، دون تأثر بالقديم أو الجديد .

وقد حاول «أبو نواس» الخروج على الشكل الدرجى فى بعض قصائده ، فأخذ يهزأ بمن يبكون على الأطلال ، ويندبون الرسوم فى طلائع قصائدهم ، وهو الذى يقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل حديثك فى ابنة الكرم

وله ما يشبه هذا المطلع فى النعى على التمسك بالقديم ؛ ولكنا نراه فى بقية شعره يحافظ على هذا السنن ، ويأخذ نفسه به أخذاً ؛ على أن الشعر قد ظهر فيه تجديد فى الأوزان فى هذا العصر ؛ ولمسلم بن الوليد ـ وهو من وزن جديد ـ قوله :

يا أيها الممدود قد شفك الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود
تبيت ساهراً قد ودعك الهجود
وفى الفؤاد نار ليس لها خمود

ولغيره ـ من شعراء العباسيين ـ أمثال لهذا ، منثورة فى كتب الأدب .

وقد وجد شىء من التجديد فى القافية أيضاً ، تراه واضحاً فى ديوان ابن المعتز .

فالتجديد فى هذا العصر حصل فى الوزن والقافية كل على حدة ، ثم جاء ابتكار الموشح

الأندلسى فجمع بينهما ، فهو تجديد فى الوزن ، وتجديد فى القافية معاً ، والموسيقى هى التى دفعت إلى ابتكار الموشح .

الشعر والموسيقى

ومن ثم سألنا الأستاذ أن يشرح لنا العلاقة بين الشعر والموسيقى ، وعما إذا كان فى أشعار العرب ما يشبه ملاحم اليونان ، فقال :

كان الشعر لا يساس قياده لنغمات الموسيقى ، فرأى الأندلسيون أن يضعوا النغمات أولا ، ثم يقولوا الشعر على هواها ثانياً ، وبذلك خضع الشعر للموسيقى ، بعد أن خضعت الموسيقى للشعر طويلا .

أجل ! إن الشعراء فى هذا العصر لم يتجاوزوا الموضوعات المعروفة إلا قليلا ، فلم ينحوا نحو الشعر التمثيلى أو القصصى ، الطويل القصائد ، الكثير الملاحم ، البعيد النفس ؛ لأن الاهتمام - على ما يظهر لى - بترجمة العلوم كان فوق الاهتمام بترجمة الآداب ، ولأن اتجاه الشعراء - فى أغلب مناحيه - كان للتكسب بالشعر ؛ على أن الشعراء فى هذا العصر لم يتركوا حادثة ذات شأن من غير أن يسجلوها فى أشعارهم . . . وشعر المتنبى فياض بوصف وقائع سيف الدولة وملاحمه ، ويكفى أن تقرأ قصيدته التى استهلها بقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

لتعرف أن العرب لم يقصروا فى وصف الملاحم وتصوير الوقائع ، ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف فتح « عمورية » التى استهلها بقوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

تجد وصفاً ممتعاً وتصويراً دقيقاً للملحمة ؛ نعم ، إن هذه القصائد ليست بالطوال ، ولكنها على قصرها وافية بالغرض الذى سيقت له وقيلت فيه .

فنحن نستطيع الآن أن نقول : إن التجديد فى الشعر العباسى كان جلياً ، ولكنه حافظ على أسلوب الشعر العربى القديم وسننه ومناهجه .

تطور الشعر

ثم انتقل الشعر بعد الدولة العباسية انتقالا آخر ، وكان لذلك تمهيد ابتدأ من « المعرى » أو بعد وفاته بقليل ، وكان زعيم هذا الانتقال القاضى الفاضل ، فهو مؤسس الطريقة الفاضلية فى النثر ، وقد سلك الشعراء طريقها فى الشعر ، فأصبحت العناية بالألفاظ وزخرفها وتزيينها متجه الشاعر وغايته ، ولم يكن البحث عن المعانى ونضارة الأساليب العربية فى هذا العصر بالذى يستثير اهتمامهم ؛ وهو نوع من التجديد أرادوا أن يسلكوا به طريقة جديدة فى صياغة الشعر ، وقد بلغت هذه الصياغة حد كمالها فى الصدر الأول من عهد المماليك ، وكان زعيم الشعراء فيها ابن نباتة فى مصر ، والصفدى فى الشام .

وتسألنى رأيى فى هذا الشعر فأقول لك : إننا لم نوفه حقه من الدرس والعناية بوإننا بهرنا بجمال الشعر العباسى فانصرفنا إليه جملة ، ولم نأبه إلا قليلا لقراءة الشعر فيما يليه من العصور .

إن شعر عصر المماليك شعر مصرى فى روحه ونزعته وموضوعاته، فمن العناية القومية أن نعنى بدرسه وتحليله والنفوذ منه إلى تاريخ هذا العصر، قبل أن نعنى بشعر بغداد وما وراء النهر.

ونستطيع أن نسمى هذا العصر عصر الزينة والجمال ، فقد كان الجمال متملكا فيه كل نفس ، وقد ظهر أثر ذلك فى مساجد المماليك ومواكبهم ، وما كانوا يتحلون به ويحلون به محافلهم من صنوف الجمال ؛ وقد كان الشعر صورة لهذا الجمال ايضاً ؛ فكله زخرف ، وكله حلية لفظية ، وكله جمال مبرقش ، تتجلى فيه خفة الروح المصرية ، وتظهر فيه النكتة البلدية بديعة رائعة أخاذة ، تدفعك ـ على الرغم منك ـ إلى المرح والابتهاج الايناس .

مثال ذلك قول « ابن دانيال » الذى كان طبيب عيون بالقرب من « باب الفتوح » :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى واضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس ؟

وقول الجزار ، وقد كان قصاباً بالقاهرة :

كيف لا أمدح الجزارة ما عشـ ـت طويلا وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا ؟

ثم تقهقر الشعر بعد طائفة ابن نباته ، فأصبح خالياً من جمال الزينة ، خالياً من المعانى ، واستمر به الضعف حتى نهض نهضته الحديثة ، وكانت اول صحوة له فى شعر «الساعاتى» الذى ظهرت فيه لمحات من الشعر القديم والأسلوب القديم ، وظهرت فيه مجافاة عن زخرف اللفظ الذى لم يشفع له شفيع من حسن الذوق أو خفة الروح ، ثم جاء « البارودى » وغيره، فلم يشق له غبار ، وكان فى الحق نادرة الفلك ؛ والسبب فى نهوضه أنه عنى بدراسة شعر السابقين من الجاهليين والأمويين والعباسيين ، ولم يرض أن يقتصر على دراسة عصره ومن سبقهم من الشعراء بأمد قريب ، كما كان شأن غيره من الشعراء .

ظل ذلك شأن الشعر حتى أتاح الله للعربية « شوقى » شاعرها الفرد ، وبلبلها الغرد ، الذى أضحى علم زمانه ، فأبدع فى فنون الشعر ومذاهبه ما شاء له الابداع ، وجدد كثيراً فى معانيه وأمانيه .

* * *

ونجمل القول أن الشعر العربى كان فيه باحة للتجديد قليلا أو كثيراً فى عصوره المختلفة ، وأن الشعراء حافظوا ـ جهد طاقتهم ـ على بقاء هذا كله مصوناً من أن يعبث بأركانه عابث، أو يمس بسوء بنيانه، فظل طوداً شامخاً، وبقى أثراً خالداً ، تتنسم منه أريج آبائنا السابقين وأجدادنا الأولين ، ونراهم مفخرة لمجدنا العربى، وبنائنا الاسلامى، وروحنا الشرقى ، ومزاجنا القومى .

وسيبقى الشعر ـ كما كان ـ تزخر بحوره بما كان للعرب من : أدب رائع ، وخيال ساحر، وبيان آسر ، وتصوير ماهر .

عبد العزيز . . .